صالح المهدي

الأغنية السياسية والنشيد الوطني في الموسيقى العربية

انه من الصعب جدا ان نفكك بين الانتاج الموسيقي الخالي من الكلمات والذي يعبر عنه في الكتب القديمة « بالموسيقى المحضة » او « الفارغات » ويسميه بعضهم الان موسيقى صامتة وبين الغناء في شتى اغراضه ومشاربه ويعسر على المتصفح للتراث الموسيقي العربي ان يجد اناشيد وطنية في اي عصر من العصور قبل التقسيم الذي ادخله الاستعمار على وطننا العربي ليصنع منه كتلات صغيرة سهلة الاستثمار والذوبان في الثقافات الغريبة عنها .

والمعروف عن اغانينا انها لم تتناول سوى الخمريات والغزل وشيء من الوصف في اسلوب يبعث على الخنوع والضعف والاستسلام فهذا الشيخ السيد الصفتي يسجل لنا .

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل
ففي حبه يحلو التهتك والذل

وهذا الشيخ سلامة حجازي الذي يعتبر من رواد المسرح الغنائي يسجل :

سمحت بارسال الدموع محاجري
لما تزايد في التجني هاجري

وهذا الشيخ يوسف المنيلاوي يسجل بدوره :

الله يعلم ان النفس قد سلكت
باليأس منك ولكني امنيها

وهذا الموشح الاندلسي الذي يغني حتى الان يقول :

جاز من الربيع ثيابك ارهن وبيع

فالامثلة عديدة لهذه المعاني التي لا تخلو من طرافة وجمال ورقة حاشية ولكن انفرادها في البرامج الفنية دون سواها ينمي في الشباب الركود والاستسلام والتذلل وعدم الشعور بالمسؤولية .

وقد وجدنا في كتب الادب والتاريخ امثلة عديدة للاغاني السياسية سواء للتنويه بالمعارك التي خاضتها الجيوش الاسلامية او لابراز مدنية معينة او لاعلاء شأن قائد منتصر ونسوق لذلك بعض الامثلة :

لعل من ابرز هذه الاغاني تلكم التي ارتبطت بشعور كل مسلم مثل التي استقبلت بها بنات النجار الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم بمناسبة الهجرة عند وصوله للمكان المعروف بثنية الوداع من المدينة المنورة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

وكذلك ما تغنت به فتيات قريش خلف المشركين المحاربين في غزوة احد في السنة الثالثة للهجرة تبعث فيهم الحماس ويقال ان هذه الاغنية موروثة من العهد الجاهلي ومطلعها :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
ان تقدموا نعانق او تحجموا نفارق
فراق غير وامق

ثم ان كتاب الاغاني يحكي لنا عدة قصص لعبت فيها الاغنية دورا سياسيا هاما فهذا المغني طويس يوقد ما خمد من نار حرب الأوس والخزرج بالاغنية التي تختم ب :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ماذا عليهم لو انهم وقفوا
فاجرى بينهم الدماء ويخرج المغني سالما من كل سوء .

وهذا سائب خاثر يستعمل لحن استاذه نشيط الفارسي في كلمات سيدنان حسان بن ثابت في غنائه لغرض سياسي :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما

واحتلت الاغنية السياسية مكانة مرموقة عند انتصاب الدولة العباسية ونورد من بين امثلتها العديدة اغنية ابراهيم الموصلي لتهنئة هارون الرشيد بتوليه الحكم :

الم تر ان الشمس كانت مريضة
فلما ولي هارون اشرق نورها
فالبست الدنيا جمالا بوجهه
فهارون واليها ويحيى وزيرها

فاجازه الخليفة بجزيل العطايا رغم ضعف الشعر الملحن .

ومن الاغاني السياسية تلك التي بز بها ابن جامع زميليه ابراهيم الموصلي ومخارق وهي التي انشدها بين يدي الخليفة هارون الرشيد عند فتحه لهرقلة وهي تصف لنا السلاح الذي استعمل في هذه المناسبة :

كان نيراننا في جنب قلعتهم مصبغات على ارسان قصار
هوت هرقلة لما ان رأت عجبا حوائما ترتمي بالنفط والنار

وبسقوط الدولة العباسية ظهرت بوادر الانهيار في السياسة واختار المغنون البعد عن الاغاني السياسية اذ لو تناولوها لاضطروا

الى مدح الحكام الاجانب الذين اصبح العديد من البلدان العربية تحت سلطتهم ، والغناء تعبير صادق لا يمكن ان يصدر الا من اعماق القلب .

ولدى مراجعتنا للتساجيل القديمة لم نجد فيها سوى بعض القطع التي تمت للسياسة بصلة منها ما سجلته شركة بيضافون للمطرب المر :

يا بلادي يا بلادي	يا ضيا البلدان
كل حب في فؤادي	موقد النيران

الى ان يقول :

يا جبالي ووهادي	مرتع الغزلان
انت فوزي في جهادي	انت دين ثان

ومنها ايضا نشيد البرلمان للمطرب المصري الكبير المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوي الذي سجلته شركة قرامفون :

وطني انا بالروح افديه حب الوطن ده من الايمان
تعيش مصر حرة
تعيش مستقلة يحي الملك يعيش سعد باشا يحي الوطن
البرلمان للمجد سبيل
ما يسلكه غير كل همام شرب الوفاء من ماء النيل

وبعد الحركات الاصلاحية وانطلاق الشعب العربي من سباته ودخوله في الحركات التحررية بدأت نهضة طيبة في انتاج الاناشيد الوطنية والاغاني السياسية سواء بالعربية الفصحى او باللهجات العامية وقد تعثر الملحنون في الخطوات الاولى اذ ظهر في العديد من هذه القطع شيء من ميوعة التلحين جعلنا نكاد لا نفرق بين تلحينها وتلحين الاغاني الغزلية من حيث ادخال جو الطرب عليها .

والطور الثاني من تلحين الاناشيد الوطنية والاغاني السياسية كان مجرد تقليد لموسيقى المسيرات الاوربية بحيث اقتصر الموسيقيون في هذا الانتاج على مقامي الكبير والصغير اللذين اختصت بهما الموسيقى الغربية وتسربت هذه العاهة الى الاناشيد المدرسية وصار بعض المشرفين على التربية الموسيقية يعتقدون انه لا يجوز ولا يمكن تلحين الاناشيد على غير هذين المقامين وعلى ايقاع غير ايقاع الخطوة ـ وكدنا بهذا المركب الذي اصاب الوسط الفني نفقد شخصيتنا العربية وندمج جيلنا الصاعد في ثقافة غير ثقافته فنجعل منه عنصرا متنكرا لشخصيته قاطعا الصلة مع الجيل الذي سبقه .

وهو بذلك معذور لانه يشعر بضرورة التخلص من الركود والميوعة التي تسلطت حتى على بعض الاناشيد الوطنية الرسمية ولا يجد امامه الا بابا واحدا يرميه في هوة اعظم خطورة .

وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

وقد خدمت الظروف السياسية بواسطة الاحزاب ومنظمات الشباب المختلفة وخاصة الاذاعات قضية النشيد فسخر العدد الكبير من الملحنين الذين يجندون لكل مناسبة حرجة فتوضع الابواق على ذمتهم للاصداع باصواتهم المدوية في قوالب موسيقية مختلفة وهكذا طلع فجر جديد للتلحين الحماسي طبقت فيه المقامات والايقاعات العربية ، فهي بداية طيبة علينا بمواصلتها وتوسيعها للاغاني المدرسية واغاني مختلف هيئات العمال والشباب .

وقبل تقديم العنصر الثاني من المحاضرة والمتعلق بالموسيقى السياسية يجدر بنا ان نتعرض لبعض الاناشيد التي اشتهرت في بعض الاقطار العربية على سبيل المثال .

لقد تبنت الحركة الوطنية في تونس سنة ١٩٣٤ نشيد مصطفى صادق الرافعي وجعلته رفيقها في الكفاح الى الاستقلال وهي تنقد من ناره لمواصلة الجهاد الاكبر :

حماة الحمى يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الوطن
لقد صرخت في العروق الدما نموت نموت ويحي الوطن

كما اعتمد طلبة شمال افريقيا عند تأسيسهم للمكتب الموحد بين المغرب والجزائر وتونس بباريس على نشيد من الحان الشيخ سيد درويش من رواية (كليوباترا) (حيوا روما) فابقوا على اللحن وغيروا الكلمات التي صارت :

حيوا افريقيا	حيوا افريقيا يا عباد
شمالها يبغي الاتحاد	اشبالها تابى الاضطهاد

وظهرت عدة اناشيد في كل قطر عربي نذكر منها نماذج من تونس : نشيد عيد العروبة من تاليف الشيخ الطاهر القصار :

يا عرب يا عرب	يا كرام
انتم للغلب والحجي والادب ...	يا عرب

وغيره لاحمد خيرالدين :

يا شبابا قد تسامى	نحو ادراك المعالي
كسر القيد وسارع	باتحاد للنضال

والناحية الاخرى من الموسيقى السياسية تتمثل في فرق العزف التي تدعم هيبة الحكم وتبعث الحماس في الجيوش واكتسبت بذلك طابعا عسكريا بحتا ـ واذا ما ربطنا بين ما جاء في مقدمة ابن خلدون من تحاشي الجيوش الاسلامية في عهودها الاولى استعمال الطبول وبين ما يذكره ابو الفرج الاصفهاني من ظهور النوبة العسكرية في العصر العباسي الثالث يمكننا الجزم بانها اخذت مكانتها الرسمية في هذا العصر الاخير .

وقد سميت بالنوبة لقيامها بالعزف اثناء فترات معينة من اليوم امام دار الخلافة فيقال هذه نوبة الصباح وهذه نوبة العصر .

وقد كانت متركبة من خمسة عازفين وخاصة بمراسم الخلافة ثم منحها الطائع في القرن الرابع الهجري ،العاشر ميلادي لوزرائه ، وجعلها تتركب لذلك من ثلاثة عازفين فقط .

ثم تفتح الخليفة القادر وسمح ان تكون خماسية لوزرائه وللسلاطين باعتبارهم يمثلون الخليفة في مناطقهم ولكن تصبح ثلاثية عندما تعزف لهم بعاصمة الخلافة .

والمعروف ان هذه الموسيقى استعملت في الاندلس وفي المغرب العربي حيث يذكر المقري غرف الابواق للخلفاء واحتفاظ الموحدين بالطبول للولاة كما يذكر ابن خلدون اندماج الموسيقيين العسكريين مع حاملي اللواء في الجيش الاسلامي .

وقد تطورت هذه الموسيقى بتطور الجيوش الاسلامية ودخلت الاقطار التي فتحتها هذه الجيوش الى ان دخلت اوربا بواسطة « الطبلة » « خانة او طبل الباشا » التي رافقت الجيش العثماني وخلفت اثرها هنالك سواء في المقامات او الايقاعات او حتى الآلات حيث اخذت الزرنة عن هذه الفرق وبقيت مستعملة حتى الان في البلقان وطورتها الاقطار الاوربية الاخرى واخرجت منها الآلة المعروفة « بالاوبوا » التي تمكنت من الدخول في الاركستر السمفوني .

وبعد النهضة العسكرية في مختلف الاقطار العربية اسست فرق موسيقية على الطريقة الغربية زاحمت طبل الباشا ثم احتلت مكانه وانطلقت هذه الفرق في المشرق والمغرب تعزف قطعا من التراث التقليدي عن روية حيث عزفت المقامات التي تلائمها .

وقام جمع من المؤلفين الموسيقيين بانتاج قطع خاصة لهذه الفرق اغلبها في شكل مسيرات راعوا فيها امكانية الآلات المستعملة وادخلوا عليها شيئا من توافق الاصوات بقدر لا يغير من طابعها العربي .

علينا الان بمواصلة الجهد في هذا الميدان بانتاج عدد كبير من القطع الخاصة مع العمل على تنويعها حتى يصبح لهذه الفرق المعروفة الان بالنحاسية برنامج مستقل عن الفرق الوترية . ويمكننا ان نتنقي

لها قطعا من التراث من المقامات التي لا تشتمل الا على الدرجات وانصافها ليصبح لها اداؤها وقد اجرينا في ذلك تجربة بتونس مع فرق الجيش والامن والفرق الشعبية التي اصبح عددها يناهز السبعين تتلخص في مد هذه الفرق كل سنة بقطع جديدة نحاسبها على تطبيقها في المباراة القومية التي تجري بينها كل سنة كما شجعنا مسؤوليها على الانتاج المركز وهكذا اخذت هذه الفرق في تكوين برنامج لها روعيت فيه القواعد والذوق .

هذه لمحة عابرة عن النشيد الوطني والاغنية والموسيقى السياسية في البلاد العربية ـ ويظهر لي انه لا يكفي ان تكون لنا فرق للموسيقى النحاسية واناشيد وطنية يرتبط اغلبها بمناسبات يسجلها المطربون والفرق وينزعونها في باب الاستوديو كما ان الجمهور اذا ما بثت له هذه القطع يتحول في الغالب بجهازه الى اذاعات اخرى للبحث عن الغذاء الفني الذي تعلق به واصبح لا يقبل سواه .

ان جمهورنا ميال الى الغناء دون الموسيقى وفي ذلك يبحث عن كلمات وموسيقى ارتبطت بوجدانه واحساسه الذي ورثه عن الاجداد .

وقد تعودنا الاستماع الى الاغاني ولا نحكم عليها الا بمدى اقترابها من التراث القديم او بما ارتبطت لدينا بذكريات الشباب . وهكذا نجد كل جيل منا ميالا الى القطع التي استمع اليها في شبابه وينتقد موسيقى الجيل الصاعد ويعتبرها مخالفة للذوق السليم .

وفي رأيي ان احسن تعبير عن هذه الظاهرة الخطيرة هو تسمية التراث التقليدي في تونس « بالمالوف » فنحن جميعا ميالون للمألوف وما عدا ذلك نعتبره خطأ لا وزن له ولا قيمة .

فالمستمع العربي اذا ما عرضت عليه قطع في تراكيب غير مالوفة لديه يرميها بالخطأ والنشاز بينما المستمع الغربي يجيب في هذه الحال بانه لم يتوصل الى فهم ما عرض عليه وفي ذلك اعتراف بنقصه واعتبار للمنتج المجدد .

علينا حينئذ بتربية ذوق الشباب على اساس يتفتح به الى كل تجديد مع الحفاظ على تقاليده واصالته والكثير من الشعوب الغربية تجمعت فيهم النزعتان معا ولم يمس ذلك من تقدمهم العلمي والفني والاجتماعي .

ففي وجود هاتين النزعتين ضمان للحفاظ على الشخصية وللتطلع لما يتماشى مع ناموس التطور .

ان مجهودا كبيرا يبذل في اغلب الاذاعات لتغيير مواضيع الاغاني فهذه تركزت على التعريف بالبلدان والاخرى على حب الوالدين والثالثة على الانتاج الصناعي .. الخ فهو عمل مهم جدا ولكن لا بد من تعزيزه بانتاج موسيقي خال من الكلمات يتركز على الوصف او ابراز براعة العازفين ندخله في برامج الاذاعات ونخصص له مكانا مناسبا في الحفلات العمومية يتوسع شيئا فشيئا الى ان نفرد لهذه القطع حفلات خاصة ليتعود الجمهور على استعمال العقل عند استماعه للغناء والموسيقى .

وبذلك يكون الموسيقيون قد ساهموا بقسطهم في بناء السلوك العربي الجديد الذي يحافظ على العاطفة التي نعتز بها وقد اخذت تتقلص من العالم الغربي بما ينذر بتفكك الاسرة ، ويعطي جانبا هاما للعقل في تدبير الامور لاعطائها الوزن الذي تستحقه .

صالح المهدي
رئيس المجمع العربي للموسيقى بتونس

صيادون في شارع ضيق

رواية بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

« صيادون في شارع ضيق » رواية من نوع آخر . فهي « رواية افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى ، كما قال عنها المستشرق الانكليزي دنيس جونسن ديفز . ولكن الاهمية في « صيادون » متأتية من تصوير الشخصيات ومن تقديم الافكار والمواقف . والشيء الذي يجعل « صيادون » عملا ادبيا بارعا هو قدرة الكاتب على تكديس جميع هذه الشخصيات والافكار والمواقف في بوتقة صغيرة وجعلها تتحرك في مختلف الاتجاهات ، رغم ان واحدا من هذه الشخصيات لا يشبه الاخر شبها كاملا . اما كيف ينتقل الكاتب من فكرة الى اخرى من دون ما علاقة ظاهرة ، فذلك دليل اخر على براعته » .

صدر حديثا

الدكتور عبدالواحد لؤلؤة